صورة المرأة المُتمرِّدة
في أدب سناء الشعلان السردي

م.م. علي خالد حامد

الملخص

يهتم هذا البحث بدراسة صورة المرأة المتمردة في المنجز السردي للكاتبة سناء شعلان ، وإبراز تمردها على المستويين : (الاجتماعي والسياسي) . ففي الجانب الاجتماعي ، تكفَّل البحث ببيان مواقف مختلفة من رفض المرأة للعادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية ، التي عملت على سلب حقوقها ، وانتهاك حريتها ، وتكميم مشاعرها وأحاسيسها . أمَّا في الجانب السياسي ، فقد توجَّهت جهود البحث نحو إلقاء الضوء على تمردها ، ورفضها للواقع السياسي ، واستجلاء مواقفها الكفاحية الرافضة لاضطهاد المحتل الصهيوني ، ووقوفها بوجه الممارسات القمعية التي اتَّبعها في سبيل فرض إرادته ، وسياسته الاستيطانية على أبناء الشعب الفلسطيني .

Abstract :

This research is concerned with studying the image of the rebellious woman in the narrative achievement of the writer Sanaa Sha'alan, and highlighting her rebellion at the social and political levels. On the social side, the research guaranteed the clarification of different positions of the woman's rejection of the customs, traditions and norms that worked to steal her rights and transgressing her freedom as well as muzzling her feelings, but on the political side, the research efforts have directed towards shedding light on its rebellion, her rejection of political reality, and the clarification of its struggle attitudes for rejecting the oppression of the Zionist occupier, and her stand against the repressive practices that followed in order to impose the occupier's will and his policy and his settlement policy on the Palestinian people.

إضاءة أولى : مفهوم التمرّد

التمرد لغة : يحيل الجذر اللغوي للتمرَّد إلى الفعل الثلاثي (مَرَدَ) الذي يشير إلى العصيان والرفض والعتو والطغيان ، كما ذكر صاحب العين ((تمرَّدَ عليه أي عصا واستعصى . وتمرَّد على الشيء أي عتا وطغى))[1]. وقد أكَّد ابن منظور هذه المعاني ، بقوله : ((مَرَدَ على الأمر ، يمرد مروداً فهو مارد ومريد . وتمرَّدَ : أقبل وعتا))[2]. وبذلك فإنَّ مفهوم التمرد في الإطار اللغوي يمكن أن نلمس فيه دلالات الرفض والمواجهة والتحدي .

أمَّا في الاصطلاح ، فمفهومه واسع ومتشعِّب ، نظراً لتنوّع أسباب حدوثه ، وتعدُّد أشكاله . واختلاف وجهات نظر الدارسين ، وما ينطلقون منه في تحديد ماهيته ، سواء كان نفسياً ، أو فلسفياً ، أو أدبياً ، أو اجتماعياً ، أو سياسياً . فهو ((ظاهرة إنسانية استمدَّت نسقها من واقع الفرد داخل المجتمع الذي ينتمي إليه ، وتجلَّت في مواقف السخط والرفض ، ومحاولة إيجاد البديل . ومن أسبابه واقع الفرد النفسي جراء الضغوط البيئية بأشكالها المتعددة من سياسية واجتماعية . أما مظاهره فتختلف تبعاً للأسباب التي نشأ بموجبها ، وهي خاصة بمجتمع دون غيره))[3]. وهو في أغلب الحالات يكون رداً على ممارساتٍ وأفعالٍ تتعدَّى حقوق الآخرين ، وتحاول سلب إرادتهم ، وفرض الهيمنة عليهم ، إذ إنَّ السلطات السياسية والاجتماعية هي الطرف الأكثر تأثيراً في دفع أغلب الناس إلى إعلان تمردهم ، وخروجهم عن السياق المألوف المتزن ، فيلجأ بعضهم إلى معاقبة منْ مارس عليه ظلماً ، سواء أكان مادياً أو معنوياً . لذلك فهو ((وسيلة لاستعادة الحقوق الضائعة من طرف السلطات الحاكمة ، كما أنَّه طريقة لكسر قيود المجتمع))[4]. والتمرّد له صُورٌ متُعددةٌ تبعاً لطبيعة الضرر الواقع على الفرد المُتمرِّد ، إذ قد يقود التمرّد في بعض الأحيان إلى العنف بأشكاله المتنوعة ، وفي بعض الحالات يدفع التَمرّد بعض الناس إلى الانزواء والانكفاء على الذات ، وهذا النمط يكون أقل ضرراً من التَمرّد العنفي .

إضاءة ثانية : تمرُّد المرأة

ممَّا لا شك فيه أنَّ المرأة العربية عاشت تحت وصاية السلطة الذكورية لعصور طويلة ، وتعرَّضت للإقصاء والتهميش والعنف على نطاق واسع ، بذرائع مختلفة ، ووسائل متعددة ، لذلك لم تجد أمامها سوى الرفض والتمرد ، من أجل استعادة الحقوق المسلوبة . وبناء على ذلك فالمرأة المتمردة ((هي التي ترفض واقعها ، وتسعى إلى الثورة على العادات والتقاليد والأعراف والتراتب ، مع مراعاة محاكاة الانسيابية في التفكير ، والاعتماد على العقل وعدم تغييبه ، ووضع القوانين والأنظمة الجديدة الخارجة عن التنميط والقيود الاجتماعية والقبلية والعادات والتقاليد الموروثة ، وتسعى إلى التخلص من كل الموروثات وفي مختلف المجالات))[5]. ويأتي تمردها لأسباب سياسية واجتماعية قاهرة ، فيكون ردة فعل على ما لحقها من أذى واضطهاد ، إذ تعمل على مغادرة ما وُصفت به من رقة وحنان ، وتلجأ إلى سلوك سبيل المخالفة والثورة والعنف ، فتتشبه بالرجال أحياناً ، وقد تمارس ممارسات ذكورية حتى على أبناء جنسها . لذلك فإن تهميشها ، والتعامل معها بنظرة دونية ، جعلها تلجأ إلى القيام بأفعال ربما لا تتلاءم مع واقعها النفسي والبايلوجي ، وتبتعد عن مهامها الإنسانية التي خُلِقت من أجلها ، فتضطر في بعض الأحايين إلى تخطي العوائق الاجتماعية والدينية والسياسية ، في سبيل إثبات ذاتها في معركة الصراع مع المجتمع الذي هيمنت عليه التوجهات الذكورية .

صور تمرُّد المرأة

من يطَّلع على المجموعات القصصية والروايات التي أنتجتها الكاتبة سناء الشعلان ، يجد مساحة كبيرة من الاهتمام بقضايا المرأة ، لا سيما فيما يتعلَّق برفضها للقيود السياسية والاجتماعية ، ووقوفها بوجه المحاولات التي استهدفت تقييد حريتها ، ومنعها من ممارسة أنشطتها وهواياتها ورغباتها بصورة طبيعية . وقد أشارت كثيراً إلى جوانب مختلفة من صراع المرأة مع الواقع الذي فُرِض عليها ، فضمَّنت رواياتها وقصصها مشاهد من تمرد عدد من النساء ، والعمل على إبراز الجانب الرافض للعادات والتقاليد السائدة في المجتمع ، فذكرت في مواضع مختلفة

ما قمن به ، وسعين إليه ، في سبيل استعادة حقوقهن المسلوبة . وقد تجلَّى التمرُّد الأنثوي في المتن السردي موضع الدراسة عبر صورتين مختلفتين ، هما : (التمرُّد الاجتماعي) ، و(التمرُّد السياسي) .

أولاً / التمرُّد الاجتماعي

لقد أثبتت الدراسات النفسية أنَّ التمرُّد يرتبط كثيراً بالضغوط الاجتماعية ، التي تمارس نوعاً من العداء والظلم والتهميش تجاه الفرد ، فيضطر إلى القيام بممارسات رافضة لما تعرَّض له ، وقد أشارت الباحثة خولة محمد إلى أنَّ التمرُّد ((نمط سلوكي مبالغ فيه خارج عن حد المألوف ، أو حد السواء ، وهو شعور بالرفض لكل ما يحيط بالفرد ، وما يترتَّب عليه من سلوك قد يتَّصف بالعداء والكراهية والازدراء لكل ما اصطلح عليه في المجتمع من قيم وعادات ونظم ، أو هو السلوك الرافض لكل ما استقرَّ عليه وألفه من عادات وتقاليد))[6]. والمرأة تخضع لسلطة اجتماعية غير عادلة في أغلب المجتمعات العربية ، التي تخضع في تعاملها مع المرأة لموروث ثقافي يمتد لعصور طويلة ، ينحاز كثيراً للرجل على حساب الأنثى ، وهذه القضية قد كانت وما زالت الشغل الشاغل لأغلب النساء المثقفات في الوطن العربي ، بحثاً عن حياة كريمة بعيدة عن التهميش والإقصاء . لذلك فإنَّ ذكر صور تمرُّد المرأة في النتاج الإبداعي النسوي ، يمثِّل نوعاً من الاحتجاج والرفض ، ومحاولة تعريف المجتمع بأخطائه ، بهدف تصحيح النظرة الخاطئة ، وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح . وفي هذا المجال زخر النتاج السردي المدروس بصور عدَّة من التمرد ، ومن هذه الصور .

1- التمرد على الواقع

ففي إحدى قصص المجموعة القصصية "**قافلة العطش**" نجد صورة واضحة عن خروج المرأة وتمردها على الواقع المرير ، الذي حرمها من أبسط حقوقها ، وهو التعبير عن مشاعرها وأحاسيسها تجاه من تحب ، لذلك فإنَّ ((محاولات التمرد ، سلبية كانت أم إيجابية ، عظيمة الأهمية في عملية النمو وإثبات الذات))[7]. وقد

تجلى ذلك في الموقف الذي كانت عليه بطلتها في القصة ، عبر رفضها لسلطة الأب والقبيلة ، وتماديها على القِّيم الاجتماعية التي كانت تكبلها ، حينما اختارت من تحب ، وهو من أسرها بحبه ، فانتصرت لقيم الحب والعشق بقولها لمحبوبها : ((**أنا عطشى ... عطشى كما لم أعطش في حياتي**))[8]، وهذا الأمر يمثِّل إعلاناً صريحاً لحالة حب في زمن كان يمنع المرأة من الجهر بحبها . لذلك ((**اقترب البدوي الأسمر خطوة أخرى منها كاد يسمع صهيلها الأنثوي وقال : "عطشى إلى ماذا؟" قالت بصوت مُتهدِّج : "عطشى إليك"**))[9]. والعطش الذي ذكرته البطلة يدلّل على مدى معاناتها من الاضطهاد الاجتماعي ، وما أفرزه من كبت شعوري حاد ، لم ترضخ له طويلاً ، فخرجت من صمتها ، وحطمت القيود الاجتماعية التعسفية ، فأعلنت عن تمردها على الكبت المفروض عليها ، وكشفت عن مشاعرها وأحاسيسها ، بهدف إسماع الآخرين أوجاعها وآلامها ، غير مبالية بما ينتظرها من عقاب . الذي كشفت عنه القصة فيما بعد ، فكان (القتل) ، الذي مارسته السلطة الاجتماعية (الأب ، القبيلة) بحقها ، تحت ذرائع الحفاظ على القيّم الاجتماعية والشرف وغيرها ، وهو ما تجلى في قول أبيها : ((**خائنة ، ساقطة ، اقتلوها ، لقد جلبت العار لنا . كيف تختارين آسركِ على أهلك؟! لقد جئت ببدعة ما سمعت بها العرب من قبل ، كيف تقبل حُرة أن تكون في ظل آسرها؟**))[10]. وقد تجلَّى جانب من جوانب الظلم والإقصاء ، التي تعاني منه النساء على مر التاريخ العربي ، فالتهم والأخطاء جاهزة في وعي المجتمع الذكوري ، وبالإمكان لصقها بالمرأة في أي وقت ، وإدانتها على ارتكابها ، سواء ارتكبتها أم لا ، تمهيداً لمعاقبتها . فهي راسخة في الثقافة الفحولية ، يتم اللجوء إليها إذا اقتضت الحاجة .

2- التمرد على سلطة الزوج

نجد في قصة "**الهروب إلى آخر الدنيا**" ، نوعاً آخر من التمرُّد ، وهو الخروج على سلطة الزوج ، إذ إنَّ بطلة القصة كانت متمردة على زوجها ، فضربت عرض الجدار قدسية الحياة الزوجية ، فأبدت انزعاجها من نمط حياتها الرتيب ، وسلوك زوجها الذي لم يكن يتلاءم مع طبيعتها الباحثة عن الحيوية والنشاط والتغيير ،

ورفض الخمول والكسل والهدوء ، الذي عاشته في ظل زوجها ، إذ لم يشعرها يوماً برجولته ، وسلطته الفحولية ، فكان مطيعاً لها في كل شيء ، ولا يعترض على ممارساتها . ولم يعوضها عن محبوبها الأول ، لكنَّها ((**كرهته زوجاً ، كلَّما رأته وحدَّقت في جسده المُسجَّى إلى جانبها ، تذكَّرت أنَّه بديل مسخ لمن أحبَّت ، كان بملامح غير مغرية ، وجسده ليس بالغض ولا بالممترع ، يفهم الزواج على أنَّه عطاء وعطاء وعطاء وتلبية حاجات ورغبات**))[11]. لذلك فإنَّ هدوء الزوج ، وعدم ممارسته الضغوط عليها قادها إلى التمرد ، والقيام بفعل الخيانة ، فقد ((**كانت حياتها معه رتيبة للغاية ، وهادئة للغاية ، لقد خانته عشرات المرات ، فقط لأنَّها حاقدة على بلادته وعلى هدوئه وعلى رضاه عن كل شيء**))[12]. فالخيانة الزوجية التي مارستها مرات عديدة ، كان مؤشراً على أنَّ سلوكها قد جاء بفعل التمرد على الواقع المزري الذي عاشته البطلة ، وعدم الخضوع للقدر ، والرضا بحياتها التي فُرِضت عليها ، وأبعدتها عمَّن تحب ، واختارت لها زوجاً لم تنسجم معه ، إذ لم يكن قادراً على منحها ما تبحث عنه ، وما فقدته في حبيبها الأول ، فكانت تعيش تحت وطأة الحنين إلى الماضي الجميل ، وتعاسة الواقع المعيش ، فكانت تبحث عن استعادة ذاتها ، وتحقيق أحلامها وآمالها مع محبوبها الذي غادرها ، وبقيت تنتظره ليكون المُخلِّص لها . وقد قادها تمردها إلى الجهر بحبها له ، فحينما عزمت على السفر قال لها زوجها : ((**هل ستسافرين وحدك؟**))[13]، فردت عليه بنبرة حادة على خلاف تلك النبرة الهادئة التي اعتادها الناس ، والتي جذبت الكثير من الرجال إليها : ((**لا بل مع رجل أحبه**))[14]، وهي بهذا التصرف قد وصلت إلى مرحلة متقدمة من التمرد والانتقام ، وتحطيم قيود الواقع المفروض عليها ، وعدم الالتفات إلى نتائج فعلها . وقد دفعها تمردها إلى طلب الطلاق من زوجها ، وإنهاء علاقتها به ، لعلَّ ذلك يخفّف من وطأة الآمها حينما خاطبته ((**ببرودٍ وقسوةٍ سانتظر ورقة طلاقي ، ابعثْ بها إلى بيت أمي**))[15]. وعندما حاولت الهروب منه ، تفاجأت أنَّه أعطاها كل ما يملك من أموال تكفيها إلى آخر العُمُر ، فأظهرت ندمَها وحزنَها على ما بَدَر منها من ممارسات ، اتَّسمت بالعنف والقسوة مع زوجها ، فقالت : ((**يا لي من حمقاء ، قالت بحزن وندم ... أنا زائفة ، ولا أعرف غير الزيف ... صمتت ،**

ثم أجهشت بالبكاء في قاعة المغادرين))[16]. وهنا كان الاعتراف بالذنب وإظهار الحزن والندم بالإجهاش بالبكاء دلائل على تمردها على ذاتها ، فوقفت بحزم ضد أمنياتها التي كانت زائفة على حد تعبيرها . فأعلنت الثورة على الوهم الذي كان يهيمن على حياتها ، ولم يترك لها أدنى فرصة للرضا والقبول بالعيش مع زوجها ، فكانت ضحية لمجموعة من الظروف التي لم تنصفها ، فافتقدت من كان يحبها ، الذي توفيّ أثر نوبة قلبية حادة ، وهذا قادها إلى التمرد على حبيبها الأول الذي ظهر في هذه الظروف ، فقالت له بمليء الفم : **((أنا لا أحبك ، أنا عاشقة بجنون لكن ليس لك))**[17]. وبذلك فإنَّ اضطراب مشاعرها ، وتعدد تجاربها الغرامية ، يكشف عن أنَّها كانت تعيش في ظل أزمة اجتماعية خانقة ، إذ لم تجد ما يلبي طموحاتها ، ويحقق لها الاستقرار الشعوري ، والارتياح النفسي ، لذلك غلب على أدائها وسلوكها طابع التمرد ، إذ لم تتردَّد في اتَّخاذ القرارات الرافضة لمن يريد فرض حبه ، بطريقته الخاصة ، فأعلنت عن ذلك في أكثر من موقف مرَّت به .

3- التمرد على الذات (الضمير)

ومن صور تمرد المرأة التي تمَّ رصدها ، التمرد على الذات(الضمير) ، وعدم الخضوع والانقياد للقيود التي تحد من طموحات المرأة ورغباتها الذاتية ، وتحاول ثنيها عن الإفصاح عن مشاعرها وأحاسيسها وانفعالاتها تجاه المحبوب ، وتجسَّد ذلك في "يوميات حروف" ، في القصة التي تحمل عنوان (الضاد) ، إذ عاشت صراعاً مريراً بين سلطة الضمير وسلطة القلب ، وربَّما قصدت بالضمير المجتمع والعادات والتقاليد ، لذلك حملت على الضمير بقوة ، ونعتته بصفات التضخّم والتورّم ، في إشارة إلى رغبتها في التمرد والخلاص من القيود ، التي تحد من حريتها ورغباتها . فكان **((ضميرها يؤلمها بقوة ، ويعاني من تضخُّم ورمي عجيب ، إذ يكاد يجتاح أحشاءها ، ويقتلع قلبها الذي خانها ، وخرج على سلطتها الحديدية موضع فخرها ، وأحبَّ ذلك الرجل الهادئ))**[18]، فحاولت البطلة التخلص من إسار ضميرها الذي كان يؤنبها ، ويحاول إبعادها عمّن تُحب ؛ لأنَّ في ذلك تهديماً لأسرة محبوبها الذي كانت لديه زوجة وأولاد ، وأنصتت بقوة لصوت قلبها وعنفوان مشاعرها

، ((**وها هيّ تحط إعصاراً على رأس زوجته وأولاده ، وتهدِّد بتحطيم عُرى تماسكهم ولطيف معشرهم ، ولكنَّها تحبُّه ولا سلطان لها على قدرها**))[19]. لذلك عملت على مقاومة ضميرها ، واستئصالهِ من حياتها ، بهدف فسح المجال أمام قلبها ، فتمارس رغباتها بعيداً عن أية سلطةٍ أو رقيبٍ مهما كان محقاً . فبادرت إلى ((**التخلص من الآم ضميرها ، وبعد صراع نفسي طويل تقرِّر أن تجري لضميرها عملية استئصال ، إذ إنَّه متورم أكثر ممَّا يجب**))[20]. وفي ذلك دليل واضح على تمرُّدها ، إذ أبدت إصراراً وتحدياً على مقاومة المؤثرات والقوى ، التي تحاول منعها من مواصلة حياتها بالطريقة الملائمة ، فتنعم بالحب والهناء مع من تحب ، على الرغم من قسوة الظروف القاهرة ، من أجل إثبات الذات ، وتلبية متطلبات حالتها الشعورية .

ثانياً / التمرُّد السياسي

ممَّا لا شك فيه هو أنَّ التمرُّد الأنثوي في المدونة السردية للكاتبة سناء الشعلان ، لم يكن مقتصراً على التمرُّد الاجتماعي فحسب ، بل تناولت جانباً من مواقف المرأة المتمردة على المستوى السياسي ، وقد بيَّنت رفضها لممارسات السلطة ، التي كانت تتَّسم بالعداء والإقصاء التهميش . وعلى الرغم من حجم الضرر الذي نال المرأة ، إلا أنَّها أظهرت شجاعة فائقة ، وصبراً كبيراً في مختلف ميادين المواجهة . إذ سعت إلى الإعلان عن ذاتها ، والإفصاح عن قدراتها ، فكانت تعي دورها والمسؤوليات المناطة بها في عملية التغيير التي ينشدها المجتمع . ومن أبرز صور تمرد المرأة في الجانب السياسي ، (التمرد على قوانين السلطة الحاكمة) ، و(التمرد على ممارسات الاحتلال الصهيوني) .

1- التمرد على قوانين السلطة الحاكمة

كانت صورة المرأة المتمردة حاضرة أيضاً في المنجز الروائي للكاتبة سناء الشعلان ، التي شعرت كثيراً بهواجس المرأة وآمالها وآلامها ، شأنها في ذلك شأن أغلب الروائيات العربيات ، اللواتي وقفن عند بوح المرأة بوصفه حالة من التمرد ، إذ

((يهيمن البوح الذاتي على الرواية النسائية ، وكأنَّها خارجة من سياجات الصمت والنسيان ، فتحاول الكشف عن المستور من خلال البوح ، الذي يغطي المساحة الأكبر من فعلها السردي))[21]. ففي رواية " أعشقني" سُلِّط الضوء على هموم المرأة ونضالها في الحصول على حقوقها ، ورفض كل أشكال الهيمنة والتسلط والتضييق على الحريات التي مارستها السلطة الحاكمة تحت ذرائع تطبيق القانون ، فبطلة الرواية (شمس) ، تروي جانباً من تمردها ، وعدم انصياعها للقوانين الجائرة لحكومة المجرة . وهي شخصية مثقفة قادرة على تشخيص العللِ والأمراض الاجتماعية ، وكانت سبباً في الانتفاض ، وتخليص النساء من الحيف والاضطهاد ، الذي وصل إلى حد منع المرأة من التمتُّع بشعرها كما تشاء ، فهي تقول : ((**لقد طلب والدي في استمارة إنجابي أن أكون بشعر برونزي مُجعَّد ، فوقع لبس ما في كتابة الاستمارة ، أو تنحية الكروموسومات الجنسية المطلوبة ، وحصلت بالصدفة المحضة على شَعر أسود لامع لزج ، يتوق إلى الاسترسال والنماء الطويل والسريع ، أكثر من جسدي القصير نسبياً ، فغضبت والدتي غضباً مرعداً غير ممطر ، وهدَّد والدي برفع قضية على حكومة المجرة لهذا الخطأ البيِّن ، والتسيُّب الواضح ، ولكنَّهما قبلا صاغرين في نهاية الأمر بشَعري ، وسعدتُ بهذا الخطأ الذي وهبني شعراً أحبُّهُ أكثر من وجودي**))[22]. ومن تلك اللحظات بدأت معركة (شمس) الطويلة والمتشعبة ، نظراً لكثرة الأطراف المناوئة لها ، بدءاً من الأبوين ، مروراً بالمجتمع ، وانتهاءً بالسلطة ، وأجهزتها القمعية . إلا أنَّها لم تضعف أو تعلن استسلامها ، فآلت على نفسها تحطيم القيود الاجتماعية ، ورفض الخضوع والمهانة ، والتمسك بالتمرد سبيلاً لنيل الحقوق المسلوبة .

وفي مشهدٍ آخر ، يتَّضح موقف (شمس) من الآخرين المضطهدين لها ، ((**ومن هنا بالتحديد بدأت مشاكلي مع نفسي ، ومع والديَّ ، ومع المجتمع ، ومع الحكومة ، ومن ثم مع المخابرات وعملي وأصدقائي وعالمي كله ، وبدأت سيرة التمرد في حياتي في سبيل الاحتفاظ به طويلاً مسترسلاً يتحرَّك كما يهوى ، ويطير أنَّى شاء**))[23]. ثم تروي لنا (شمس) صوراً من معاناتها في النص الآتي ،

((أستطيع أن أجمل لك هذه المشاكل كلها في أنَّ الحكومة تحرِّم الشعر الطويل ، وتدين تربيته ، وتجرِّم مَنْ يفعل ذلك من باب فرض نمط شكلي واحد على سكان المجرة كلهم ، لاعتبارات كثيرة يمكن اختزالها في ثقافة القبح والاستبداد ، وفرض النمط الواحد ، ومحو خصائص الفردية والاختيار ، ووالداي والمدرسة والعمل ، وكل مَنْ حولي يريدون أن أخضع للقانون من باب إغلاق منافذ المشاكل والمخالفات وغضب الحكومة))[24]. لكن كل هذه الهواجس لم تقف حائلاً أمام (شمس) في المطالبة بحقوقها ، ورد الذي يحاولون تهميشها ، وتجريدها من أنوثتها . لتعلن عن موقفها المتمرد والمفُعَم بالتحدي والإصرار كما في قولها : **((وأنا لا أبالي بإشراع النوافذ كلها على الجحيم ، مقابل الاحتفاظ بشعري الجميل الذي يسعدني ، ويكتنفني بحميمية خاصة تفجِّر في داخلي اعتزازاً عملاقاً بأنَّني أنثى))**[25]. وهذا الأمر لم يكن هيناً ، بل فتح عليها باب المتاعب والمعاناة ، فمورسَ ضدها مختلف أنواع العنف الجسدي ، ووُضِعت في دائرة الاتهام ، وقد وصفت ذلك بقولها : **((ولك أن تتخيَّلي كم عُنِّفتُ وضُرِبتُ وعُوقبِت وأُضطهِدت وغُرِّمت ثم جُرِّمتُ أخيراً ، وعندما بلغت سن الحادية والعشرين وهو سن الرشد في المُجرَّة ، وأخيراً قادني شعري الطويل الجامح كنجمة إلى المحكمة بصفتي متمردة صغيرة ، وعاصية حمقاء ومواطنة عنيدة ، تتمسَّك بمخالفة القانون ، ومعاندة لدولة من أجل شعر أسود طويل لا قيمة له ، سوى ذلك الافتتان الجميل به ، والنشوة الحلوة التي تسكن في نفس كل مَنْ يراه يتطاير بزهو في الهواء ، ويتمايل بحركة غنجاء مائعة ، متهاوية مع كل حركة أقوم بها))**[26]. وانتهى بها الأمر في السجن بعدما رفضت دفع الغرامة بحجة مخالفة القانون ، فكان ذلك علامةً على نزوعها نحو التمرد ، وتقويض القيَّم والقوانين الجائرة التي لم تراعِ أنوثة المرأة ، ورغبتها في التعبير عن عواطفها ومشاعرها ، وتصوير جمال جسدها . ثم أنَّها مارست تمرداً من نوع آخر وهو الكتابة في السجن ، بما يوحي برغبتها في إثبات وجودها وقوتها بمختلف الوسائل المتاحة . فتصف ذلك بقولها : **((وأُلقيَّ بي في السجن عندما رفضت دفع الغرامة ، وقُصَّ شعري وفق القانون ، وكاد الأمر ينتهي بي عند هذا الحد ، لولا كلماتي التي كان لها الدور الثاني في تغيير اتِّجاه حياتي ، فقد شرعتُ**

أكتب رواية متمردة جميلة اسمها " سير أصحاب الشَعر القصير" . ضمَّنتها أجمل الأفكار التي قرأتها ... واستفدتُ في معلوماتي عن قيم الجمال والحرية في الألفية المنصرمة ، من أجل لمز قوى الاستبداد كلها في حكومة المُجرَّة ، ووظَّفت أساطير الحُب والجمال والخلق والوجود والنهايات والجحيم والفردوس كلها ، لأجل شحن هذه الرواية لكل مثير وطريف ومقنع ، وتثوير الشعب ضد وجودهم المفرغ من الروح والسعادة والذاتية ، في عالم إلكتروني مبرمج وفق ما تقتضيه خارطة مصالح رجالات حكومة المجرة))[27]. وهنا لم يكن السجن عائقاً أمام (شمس) لتنوير الشعوب ، وحثِّهم على رفض الظلم والاضطهاد ، بل حوَّلت هذا المكان (السجن) من محتواه السلبي الذي يعني الاندثار والانقطاع والتأزم النفسي إلى صورة مليئة بالتحدي ، والانطلاق نحو فضاء الحرية والأمل والتفاؤل وعدم اليأس والقنوط ، حتى أصبحت روايتها – سّير أصحاب الشَعر القصير – علامة فارقة في حياتها ، وحياة سكان المجرة ، وغيَّرت من مسار الأحداث ، وقضت على حالة السكون والخضوع ، إذ أنارت لهم طريق التحرر والحياة الكريمة عِبرَ انتصارها للقيّم السامية ، التي نادت بها السماء كثيراً ، فعملت على تحرير طريقة التفكير والوعي من ربق الجمود والأفكار الجاهزة ، ونقل الناس من حَالة الاستلاب إلى واقع مختلف ، يجعلهم قادرين على فهم حقوقهم ، وكيفية المطالبة بها ، إذ **((إنَّ رواية سير أصحاب الشعر القصير هي مَنْ عرَّفت سكان المجرة بي ، ونقلتني من خانة الإجرام والعِناد والطيش إلى خانة التمرد المُعلَّل ، والبطولة الكونية ، والقيادة الثورية ، والريادة الفكرية التحررية من قوى الظلم والاستبداد كلها ، وهي مَنْ كفلت لي جيشاً من المؤيدين والمتعاطفين والمدافعين معي ، بعد أن قرأوا روايتي تباعاً عِبرَ تداولها السري النشط في البداية ، ثم العلني الأكثر نشاطاً ورواجاً))**[28]. وفي ذلك إشارة واضحة إلى دور الثقافة في تغيير الواقع نحو الأفضل ، والمسؤولية في ذلك تقع على عاتق المثقفين في بلورة رؤية واضحة ، تعمل على تحرير الناس من ظلمات الظلم والاستبداد ، وتنوير عقولهم بقيم الحرية ، التي تنير حياتهم ، وتجعلهم على قدر كبير من الوعي ، الذي يؤهلهم لممارسة حياتهم على أكمل وجه .

2- التمرد على ممارسات الاحتلال الصهيوني

بعد الاطِّلاع على المدونة السردية للكاتبة سناء الشعلان ، وجدت الدراسة أنَّها تعرَّضت في مواقف كثيرة إلى نضال المرأة الفلسطينية ، وتمرُّدها على الأعمال الإجرامية التي يمارسها المحتل الإسرائيلي بحق أبناء الشعب الفلسطيني ، إذ لم تكن حبيسة بيتها ، وإنَّما ساهمت مساهمة فعَّالة في مقاومة سياسة العدو ، وقدَّمت تضحيات كبيرة في سبيل الوطن ، فقد ((أُستشهِدت ، وسُجِنت ، وأُبعِدت كثيرات منهن ، وما زلن يلاقين كل ألوان الظلم والتعسُّف من السلطات المحتلة . لقد وصلت المرأة المناضلة في فلسطين قمة التفاعل مع الهم الجماعي ، متجاوزة المستويات الدنيا من العمل الاجتماعي ، والثقافي ، والخيري ، وغيرها ، فوصلت في وعيها إلى السياسة والنضال ، والأحزاب السياسية))[29]. فكانت جنباً إلى جنب مع الرجل في ميادين الصراع المختلفة ، وأظهرت شجاعة وصبراً وتحدياً ، على الرغم من قسوة الظروف التي عاشها الشعب الفلسطيني خلال العقود الماضية .

وبما أنَّ ظاهرة التمرُّد تهدف ((إلى رفض قاطع لتعدٍّ لا يُطاق ، وإلى يقين مبهم بوجود حق صالح ، فلا بد للتمرُّد من أن يكون مقترناً بشعور المرء بأنَّه على حق بصورة ما ، ومجال ما))[30]. لذلك كانت تشعر المرأة الفلسطينية بعدالة قضيتها ، ولا بد من الحصول على الحرية والاستقلال التام ، انطلاقاً من رؤية سياسية تؤمن بحق الفلسطينيين في تأسيس دولتهم المستقلة . وقد تتبَّعت الكاتبة حركة المرأة الفلسطينية في ميادين الجهاد ، ونشاطها السياسي في مواضع مختلفة من منجزها السردي .

ففي قصة (حالة أمومة) نجد صورة من صور المرأة المتمردة على قسوة المرض وآلامه ، وقد تحدَّت جبروت الاحتلال الإسرائيلي الغاشم في سبيل تحقيق حلمها باحتضان طفلها الرضيع ، وجمع شمل عائلتها ، بعدما فرَّقتهم إجراءات العدو الإسرائيلي عبر الجدار العازل الذي أقاموه في فلسطين ، ((**لم تكن تعلم بزرع الجدار العازل على أرض قريتها في فلسطين ، وهي تقبع في غرفتها الصغيرة**

المعزولة في مستشفى إحدى العواصم العربية ، بعد أن حصلت على منحة علاج من إحدى المنظمات الطبية الخيرية الدولية ، بعد طول انتظار لتعالجَ من مرض السرطان الخبيث ، الذي غزا ثديها الأيسر ، منذ أن وضعت أبنها الوحيد (هاشم) ، ومنعها من أن ترضعه ، ولو لمرة واحدة في حياتها))[31]. ولم يكن المرض هو العامل الوحيد في قهر المرأة الفلسطينية ، بل كانت ممارسات المحتل الإسرائيلي قد ضاعفت من معاناتها وألمها ، وقد شاركها الألم عمَّات ابنها الثلاث العوانس ، **((يقاسمنها أعباء الحياة القاسية في مواجهة عدو اعتاد جنودهُ على مهاجمة بيتهم في دوريات تفتيشية مداهمة مكرورة ، منذ أن اعتقلوا زوجها في مواجهات احتجاجية في الشهر الثاني من حملها))**[32]. فما قام به العدو الصهيوني باعتقال زوجها ، أسهَمَ في محاصرتها ، وجعلها تعيش تحت ضغوطٍ كثيرة ، كادت أن تفقدها عنصر المقاومة ، وتحيلها إلى الاستسلام والضعف . فقد تكالبت عليها الأوجاع والأحزان ، فالمرض وسفرها للعلاج خارج الوطن ، واعتقال زوجها ، وعدم علمهِ بمرضها ، وحنينها لطفلها ، كلها كانت عوامل قاهرة ، إلا أنَّها أبت أن تشتكي ، وتعلن انهزامها أمام قسوة الظروف . فقد **((أخفت أمر مرضها عن زوجها ، بناءً على رغبة شقيقاته اللواتي آثرنّ التكتم على هذا الخبر ، كي لا يزدن من عذابات معتقله ، وبوائق أحزانه وآلامه))**[33]. فقيامها بإخفاء مرضها ، يُعَدُّ فِعلاً مقاوماً ، يزيد من زخم المواجهة والتحدي والإصرار ، وعدم الرضوخ لمؤامرات الإسرائيليين ، فقد أثبتت المرأة حبها لزوجها الذي لا يقلُّ شأناً عن حبها لوطنها ، فهي كانت تُقاسي المرض لوحدها لئلا ينال ذلك من عزيمة زوجها ، فيؤدي به إلى الانهيار والضعف . ويبدو أنَّ كل الممارسات العدوانية التي قام بها الإسرائيليون من تهجير أهلها ، وهدم بيتها ، وتجريف أرضها ، فضلاً عن مرضها ، جعلها أكثر إصراراً على المجابهة والصمود ، فتشير القاصة إلى حالها المؤلم بقولها : **((تلاشى حلمها الوردي بأن تحتضن طفلها الصغير ، بعد أن تحوَّلَ إلى كابوس تعيشه بتفاصيله القبيحة الموحشة ، وها هي قد أصبحت لاجئة في وطنها ، وعلقت مع أبيها في بيت حجرة يسكنه أفراد عشرة من أقاربها ، ومن جديد بات عليها أن تحارب سرطان الألم والوحدة والنبذ))**[34]. ومحاربة المرض والوحدة والتهجير ، وتشتُّت

عائلتها ، لم يكن أمراً يسيراً ، بل كان يستدعي مقوماتٍ كثيرةٍ ، لكي تجتاز تلك المرحلة المؤلمة ، لذلك لم تقف مكتوفة الأيدي أمام كل هذه التحديات ، فقامت بسلسلة من الأفعال التي أفصحت عن تَمرُّدها على واقعها المؤلم . وقد ((**حاولت دون جدوى أن تعود إلى أسرتها خلف الجدار ، واشتدَّت محاولاتها إلحاحاً عندما علمت أنَّ زوجها قد خرَجَ من المعتقل ، واكترى بيتاً صغيراً في أطراف قريته ، وجمع شمل أسرته من جديد ، وجَعَلَ شغلَهُ الشاغل أن يجد طريقة تسمح لزوجته بالعودة إلى بيتها وأسرتها وابنها ، ولكنَّه كان يخفق المرة تلو الأخرى في تحقيق مراده**))[35]. ولمَّا علمت بتحرر زوجها ، ازدادَ جموحها نحو التمرد على اليأس والقنوط ، فسلكت طرقاً متعددة في سبيل لملمة شتات عائلتها ، ورؤية زوجها ، فقد ((**كانت الفرصة الوحيدة للقاء هي عبرَ الحصول على تصريح زيارة حصلت عليه بشق الأنفس ، ولو كان هناك سفرٌ للشمس لكان أيسر من الحصول عليه ، وأخيراً استطاعت أن تضم طفلها إلى صدرها تحت عيون الرُقبَاء غير الوامقين من الجنود الصهاينة**))[36]. وبذلك فهي لم تعبأ بالجنود الصهاينة على الرغم من قسوتهم وطغيانهم ، انطلاقاً من أنَّ ((الإنسان المقهور متربص دوماً للمتسلط كي ينال منه ، كلما استطاع وبالأسلوب الذي تسمح به الظروف))[37]، فحبُّها لطفلها ولزوجها ولوطنها ، منحها القوة والصلابة اللتين كانتا زادها ووقودها في المقاومة ، ودحر كل أشكال التسلُّط والظلم والقهر . وبذلك فأنَّ أحداث هذه القصة تعُطي صورة واضحة للمرأة الفلسطينية الصابرة والمجاهدة التي كانت تصارع الحياة من أجل الحفاظ على أسرتها ووطنها ، عَبر التحدي والتمرُّد ، والوقوف بوجه عوامل القهر والاستلاب ، فكانت مثالاً للمرأة المؤمنة بقضيتها التي هي قضية شعب ووطن في الوقت نفسه ، الوطن الذي أُريدِ لَهُ أن يتمزَّقَ إلى أشلاء متناثرة . لذلك فإنَّ ما قامت به بطلة القصة هو لونٌ من ألوان الدفاع عن الحياة ، على الرغم من التحديات الهائلة التي كانت تواجهها .

وبذلك فقد أظهرت الكاتبة سناء الشعلان صوراً مختلفة من واقع المرأة في تمردها وبوحها وكفاحها ، اجتماعياً وسياسياً ، إذ مثَّلت الأنثى في نتاجها السردي

طاقة توليدية لحركة التداعي والتفاعل والتحوُّل ، فتحوَّلت في النصوص السابقة إلى طاقة لا تكتفي بالدلالة الواحدة ، بل تتعدَّاه إلى طاقة تفجيرية محمَّلة بدلالات مضاعفة ، تسافر في الرؤيا ، فتمسح فضاءات النصوص المستدعاة ، لتضيئها بشعلة وهَّاجة تشع بالإبداع ، فتغري القارئ ، وتستحثَّه ليقدم على قراءة خطابها السردي بشغف[38]، وقد كان ذلك عملاً مقصوداً ، بهدف توسيع دائرة التأثير في المتلقي ، ليكون متفاعلاً مع ما يتم طرحه من أفكار ورؤى ، تسعى عبرها الكاتبة إلى إيصال صوت المرأة ، وتعريف أبناء المجتمع بمعاناتها وآلامها وآمالها ، بهدف كسب التأييد الكافي لقضية المرأة في الوطن العربي .

الخاتمة :

بناء على ما سبق ذكره ، فقد اتَّضح أن الميدان السردي قد شكَّل فضاءً رحباً قادراً على استيعاب تناقضات الحياة ، وتجسيدها بطريقة فنية ، تكون مؤثِّرة في المتلقي ، لذلك استثمرت الكاتبة سناء الشعلان المساحة المتوافرة في الفن السردي ، بهدف نقل جوانب مختلفة من قضايا المرأة ، لا سيما ما يتعلَّق بكفاحها ونضالها ورفضها للواقع المؤلم ، فعمدت إلى إبراز صور متعددة من صراع المرأة وتمردها على المستويين الاجتماعي والسياسي . والهدف من وراء ذلك ، ليس تشويه صورة المرأة ، بقدر ما هو فضح الممارسات الخاطئة التي كانت تستهدفها ، وعملت على تقييد حريتها ، ومنعتها من البوح بمشاعرها وأحاسيسها ، لذا قامت الكاتبة بتوجيه سهام النقد إلى الواقع الذي تعيشه المرأة ، بأركانه المختلفة (الزوج ، والأخ ، والأب ، والقبيلة ، والسلطة الحاكمة ، والمحتل الصهيوني) ، وتقويض حججه ، وتعرية أساليبه ، بحثاً عن حياة كريمة ، تعيش فيها المرآة آمنة ، فتمارس دورها في المجتمع ، بعيداً عن الإقصاء والتهميش .

الهوامش :

(1) معجم العين : مادة مرَدَ .

(2) لسان العرب : مادة مَرَدَ .

(3) ضجيج الشعر الأندلسي دراسة في أنماط تمرده الموضوعية ومبانيه الفنية : 18 – 19 .

(4) التمرد في كتابات نوال السعداوي– مذكرات طبيبة أنموذجاً : 87 .
(5) تمثلات المرأة في الرواية العراقية والإيرانية دراسة مقارنة : 69.
(6) العلاقة بين الضغوط النفسية والتمرد : 7.
(7) المرأة والحرية – دراسات في الرواية العربية النسائية : 24 .
(8) قافلة العطش ، مجموعة قصصية : 12.
(9) م.ن : 12.
(10) م.ن : 12–13.
(11) الهروب إلى آخر الدنيا ، مجموعة قصصية : 37.
(12) م.ن : 37–38.
(13) م.ن : 39.
(14) م.ن : 40.
(15) م.ن : 40.
(16) م. ن : 41.
(17) م.ن : 42.
(18) ناسك الصومعة ، مجموعة قصصية : 59.
(19) م.ن : 59.
(20) م.ن : 59.
(21) سرد المرأة وفعل الكتابة دراسة نقدية في السرد وآليات البناء : 228 .
(22) أعشقني ، رواية : 120.
(23) م.ن : 120.
(24) م.ن : 121.
(25) م.ن : 121.
(26) م.ن : 121.
(27) م.ن : 121–122.
(28) م.ن : 122_123.
(29) صورة المرأة في الرواية الأردنية : 31 .
(30) الإنسان المتمرد : 17 .
(31) حدث ذات جدار ، مجموعة قصصية : 25.
(32) م.ن : 25.

(33) م.ن : 25.

(34) م.ن : 26.

(35) م.ن : 26.

(36) م.ن : 26.

(37) التخلف الاجتماعي ، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور : 44 .

(38) ينظر : سرد المرأة وفعل الكتابة دراسة نقدية في السرد وآليات البناء : 154 .

المصادر والمراجع /

(1) أعشقني ، رواية ، د. سناء شعلان ، أمواج للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن ، ط1 ، 2019م .

(2) الإنسان المتمرد ، البير كامي ، ترجمة : نهاد رضا ، منشورات عويدات ، بيروت – لبنان ، ط3 ، 1986م .

(3) التخلف الاجتماعي ، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور ، د. مصطفى حجازي ، (د.ط) ، (د.ت) .

(4) تمثلات المرأة في الرواية العراقية والإيرانية دراسة مقارنة ، محمد مهدي ياسين الخفاجي ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب – جامعة ذي قار ، 2016م .

(5) التمرد في كتابات نوال السعداوي– مذكرات طبيبة أنموذجاً ، مليكة عتماني وكريمة أمزرار ، رسالة ماجستير ، جامعة عبد الرحمان ميرة – بجاية ، كلية الآداب واللغات ، 2017م – 2018م .

(6) حدث ذات جدار ، مجموعة قصصية ، د. سناء شعلان ، أمواج للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن ، ط1 ، 2016م .

(7) سرد المرأة وفعل الكتابة دراسة نقدية في السرد وآليات البناء ، د. الأخضر بن السائح ، دار التنوير – الجزائر ، (د.ط) ، 2012م .

(8) صورة المرأة في الرواية الأردنية ، أروى عبيدات ، وزارة الثقافة ، عمان – الأردن ، ط1 ، 1995م .

(9) ضجيج الشعر الأندلسي دراسة في أنماط تمرده الموضوعية ومبانيه الفنية ، د. محمود شاكر محمود ، دار غيداء للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2018م .

(10) العلاقة بين الضغوط النفسية والتمرد ، خولة محمد زايد ، رسالة ماجستير ، جامعة مؤتة – كلية العلوم التربوية ، 1995 .

(11) قافلة العطش ، مجموعة قصصية ، سناء الشعلان ، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع ، الأردن – عمان ، ط1 ، 2006م .
(12) لسان العرب ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري الإفريقي ، صحَحهُ : أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان – بيروت ، (د.ط) ، (د.ت) .
(13) المرأة والحرية – دراسات في الرواية العربية النسائية ، د. جان نعوم طنوس ، دار المنهل اللبناني للدراسات والتوثيق – بيروت ، ط1 ، 2011م
(14) معجم العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق : عبد الله درويش ، مطبعة العاني – بغداد ، (د.ط) ، (د.ت) .
(15) ناسك الصومعة ، مجموعة قصصية ، سناء شعلان ، نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي ، (د.ط) ، 2007م .
(16) الهروب إلى آخر الدنيا ، مجموعة قصصية ، سناء شعلان ، نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي ، (د.ط) ، 2006م .